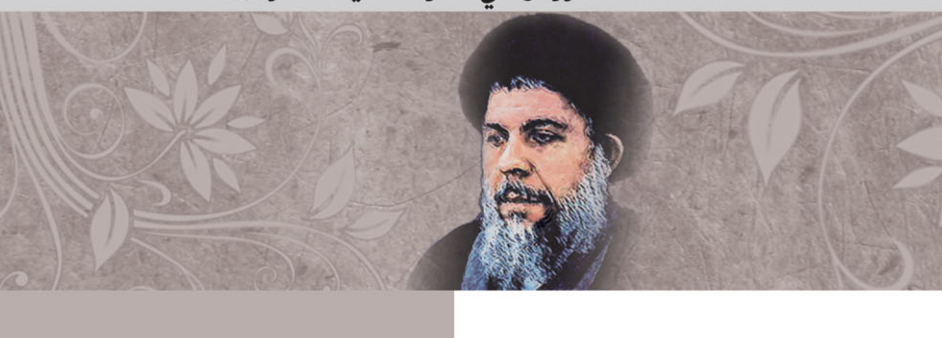


5

صيغ السنن التاريخية

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره







الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

صيغ السُنن التاريخيّة

جـمـعـيـة المـعــارف الإســلامـيـة الـثـقـافـيـة
بـيروت . لـبـنـان . المـعـمـورة . الـشـارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ ـ ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: صيغ السُنن التاريخيّة
إعـــداد: مركز نون للتّأليف والترجمة
نـــشـــر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى: 2009 م/ 1430هـ

صيغ السُنن التاريخيّة

دروس من فكر الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمـد لله ربّ العالميـن، وأفضـل الصلـوات على سيّد الخلق محمّد وعلى الهداة الميامين من آله الطاهرين.

بعد تأكيد القرآن الكريم على ضرورة السير في الأرض، وأخذ العبر واستخلاص السنن منها، يبقى السؤال أنّه كيف يمكـن الاستفادة من هذه السنن؟ وبكم نحو أو صيغة نراها موجودةً في القرآن الكريم؟

يعرضـ الشهيد الصدر ثـلاث صيغ للسنـن التاريخيّة: مـا كان بصيغـة القضيّـة الشرطيّة، ومـا كان منها بصيغة القضيّـة المحقّقـة الناجـزة، وما يكـون على نحـو الاتجاه الطبيعـيّ. ومن هنا يدخل ليفرّق بيـن القانون والاتجاه، ثمّ يمهّـد لعرض الدين بنحو كونه شريعة، وبنحو صيغة الاتجاه الطبيعـيّ الذي لا يقبـل التحدّي على المـدى الطويل، وفي

كلّ ذلك لا يغفل عن موقع إرادة واختيار الإنسان من هذه السنن، ومدى فعاليّة هذا الدور في إيجاد الأرضيّة الملائمة لإجراء السنّة التاريخيّة.

هذا البحث الذي بين يدي القارئ الكريم، قمنا باختياره من كلام الشهيد، ثمّ تشذيبه من المكرّرات التي تستوجبها المحاضرات، مع التصرّف البسيط بالعبارة محافظة على وحدة السياق، وبالتقديم والتأخير المناسبين مع الإشارة لذلك. كلّ ذلك من محاضرة للشهيد السيّد محمّد باقر الصدر (رضوان الله عليه) ألقاها بتاريخ: ١٠ / ج ١/ ١٣٩٩ هـ.

وقد حاولنا قدر الإمكان المحافظة على عبارات الشهيد السعيد، مع إضافة بعض العناوين للفقرات والأبحاث، وإعادة ترتيب لبعض الأبحاث المترامية، وجمعها في بحث واحد.

وقد تمّ طباعة المحاضرة في كتاب المدرسة القرآنيّة، ويمكن مراجعة المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيّد محمّد باقر الصدر/ دار التعارف للمطبوعات/ بيروت ـ لبنان/ ط. ١٩٩٠ م/ ج ١٣.

الأهداف

١. التعرّف إلى صيغ السنن التاريخيّة.

٢. التفرقة بين القانون والاتجاه.

٣. التأكيد على دور اختيار الإنسان في السنن.

٤. تحليل العلاقة بين المحتوى الإنساني والبناء الفوقي للمجتمع.

تمهيد

كيف يتــمّ التعبير موضوعيّــاً عن القانــون التاريخيّ في القرآن الكريم؟

ما هــي الأشكال التــي تتّخذها سُنن التاريــخ في مفهوم القرآن الكريم؟

هناك ثلاثــة أشكال تتّخذها السنّة التاريخيّة في القرآن الكريــم، لا بدّ من استعراضها ومقارنتها والتدقيق في أوجه الفرق بينها.

١ ـ شكل القضيّة الشرطيّة

في هذا الشكل تتمثّل السنّة التاريخيّة في قضيّة شرطيّة، تربط بين حادثتين، أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخيّة، وتؤكّد العلاقة الموضوعيّة بين الشرط والجزاء، وأنّه متى ما تحقّق الشرط تحقّق الجزاء.

وهــذه صياغــة نجدها فــي كثيرٍ مــن القوانيــن والسُنن الطبيعيّة والكونيّة، في مختلف الساحات الأخرى.

فمثــلاً حينمــا نتحدّث عن قانــونٍ طبيعيّ لغليــان الماء، نتحــدّث بلغة القضيّة الشرطيّة، نقول بــأنّ الماء إذا تعرّض إلى الحــرارة، وبلغت الحرارة درجةً معيّنــةً، مائة مثلاً، في مستــوى معيّــنٍ من الضغــط، حينئذٍ سوف يحــدث الغليان. هذا قانونٌ طبيعــيٌّ، يربط بين الشرط والجــزاء، ويؤكّد أنّ حالة التعرّض إلى الحــرارة، ضمن مواصفات معيّنة، تذكر في طرف الشرط، تستتبع حادثةً طبيعيّةً معيّنةً، وهي غليان هذا الماء، تحوّل هذا الماء من سائل إلى غاز. هذا القانون مصاغٌ على نهج القضيّة الشرطيّة.

ومن الواضح أنّ هذا القانون الطبيعيّ، لا ينبّئنا شيئاً عن تحقّــق الشرط وعدم تحقّقه، لا ينبّئنا هذا القانون الطبيعيّ عن الماء هل سوف يتعرّض للحرارة، أو لا يتعرّض للحرارة؟ هل أنّ حــرارة الماء ترتفع إلى الدرجة المطلوبة ضمن هذا القانون، أو لا ترتفع؟ هذا القانون لا يتعرّض إلى مدى وجود

الشــرط وعدم وجــوده، ولا ينبّئنا بشيءٍ عــن تحقّق الشرط إيجابــاً أو سلبــاً، وإنّمــا ينبّئنــا عن أنّ الجــزاء لا ينفكّ عن الشرط، متى مــا وُجد الشرط وُجد الجزاء، فالغليان نتيجةٌ مرتبطةٌ موضوعيّاً بالشرط.

دور هذه القوانين

مثــل هذه القوانين تقدّم خدمةً كبيرةً للإنسان في حياته الاعتياديّــة، وتلعــب دوراً عظيمــاً فــي توجيه الإنســان؛ لأنّ الإنسان ضمن تعرّفــه إلى هذه القوانين، يصبح بإمكانه أن يتصرّف بالنسبة إلى الجزاء، ففي كلّ حالةٍ يرى أنّه بحاجةٍ إلى الجزاء، يُعمل هذا القانــون، يوفّر شروط هذا القانون، وفي كلّ حالةٍ يكون الجزاء متعارضاً مع مصالحه ومشاعره، يحاول الحيلولة دون توفّر شروط هذا القانون، ومتى ما كان غليــان الماء مقصوداً للإنسان، يطبق شروط هذا القانون، ومتى لــم يكن مقصوداً للإنسان، يحاول أن لا تطّبق شروط هذا القانون.

إذاً القانون الموضوع بنهج القضيّة الشرطيّة، موجّه عمليّ للإنسان في حياته.

الحكمة من صياغة النظام على شكل قوانين

ومن هنا تتجلّى حكمة الله سبحانه وتعالى في صياغة نظام الكون على مستوى القوانين، وعلى مستوى الروابط المطّردة والسُنن الثابتة؛ لأنّ صياغة الكون ضمن روابط مطّردة وعلاقات ثابتة، هو الذي يجعل الإنسان يتعرّف إلى موضع قدميه، وإلى الوسائل التي يجب أن يسلكها في سبيل تكييف بيئته وحياته، والوصول إلى إشباع حاجته. لو أنّ الغليان في الماء كان يحدث صدفةً، ومن دون رابطةٍ قانونيّة مطردةٍ مع حادثةٍ أخرى كالحرارة، إذاً لما استطاع الإنسان أن يتحكّم في هذه الظاهرة، أن يخلق هذه الظاهرة متى ما كانت حياته بحاجةٍ إليها، وأن يتفاداها متى ما كانت حياته بحاجةٍ إلى تفاديها، إنّما كان له هذه القدرة باعتبار أنّ هذه الظاهرة وضعت في موضعٍ ثابتٍ من سُنن الكون،

وطرح على الإنسان القانون الطبيعيّ بلغة القضيّة الشرطيّة، فأصبـح ينظر في نورٍ لا في ظـلامٍ، ويستطيع في ضوء هذا القانون الطبيعيّ أن يتصرّف.

الشكل الأوّل والسُنن التاريخيّة

نفس الشيء نجده في الشكل الأوّل من السُنن التاريخيّة القرآنيّــة؛ فإنّ عدداً كبيراً مــن السُنن التاريخيّة في القرآن قــد تمّت صياغته على شكل القضيّة الشرطيّة التي تربط ما بين حادثتين اجتماعيّتين، أو تاريخيّتين، فهي لا تتحدّث عن الحادثــة الأولى أنّها متى توجد، ومتى لا توجد، لكن تتحدّث عــن الحادثة الثانية؛ بأنّــه متى ما وجــدت الحادثة الأولى، وجدت الحادثة الثانية.

١ ـ ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

هذه السنّة التاريخيّة للقرآن بُيّنت بلغة القضيّة الشرطيّة؛ لأنّ مرجــع هــذا المفاد القرآنــيّ إلى أنّ هنــاك علاقةً بين

(١) الرعد: من الآية١١.

تغييرين: بين تغيير المحتوى الداخليّ للإنسان، وتغيير الوضع الظاهريّ للبشريّة والإنسانيّة. مفاد هذه العلاقة قضيّة شرطيةٌ؛ أنّه متى ما وُجد ذاك التغيير في أنفس القوم، وُجد هذا التغيير في بناء القوم وكيان القوم.

٢ ـ ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[1].

إنّ هذه الآية الكريمة تتحدّث عن سُنّةٍ من سُنن التاريخ، عن سُنّةٍ تربط وفرة الإنتاج بعدالة التوزيع، هذه السُنّة أيضاً هي بلغة القضيّة الشرطيّة، كما هو الواضح من صياغتها النحويّة أيضاً.

٣ ـ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[2].

هذه أيضاً سنّةٌ تاريخيّةٌ بُيّنت بلغة القضيّة الشرطيّة، ربطت بين أمرين، بين تأمير الفسّاق والمترفين في

(١) الجنّ:١٦.

(٢) الإسراء:١٦.

المجتمع، وبين دمار ذلك المجتمع وانحلاله. هذا القانون التاريخيّ أيضاً، مُبيّن على نهج القضيّة الشرطيّة، فهو لا يبيّن متى يوجد الشرط، لكن يبيّن أنه متى ما وُجد هذا الشرط وُجد الجزاء.

موقع إرادة الإنسان من السنّة

يظهر دور إرادة الإنسان عن طريق الالتفات إلى الشكل الأوّل من أشكال السُنّة التاريخيّة، الذي تصاغ فيه السُنّة التاريخيّة بوصفها قضيّةً شرطيّةً. وكثيراً ما تكون هذه القضيّة الشرطيّة في شرطها معبّرة عن إرادة الإنسان واختيار الإنسان، يعني أنّ اختيار الإنسان يمثّل محور القضيّة الشرطيّة، وشرط القضيّة الشرطيّة.

إذاً فالقضيّة الشرطيّة كالأمثلة التي ذكرناها من القرآن الكريم، تتحدّث عن علاقةٍ بين الشرط والجزاء، لكن ما هو الشرط؟ الشرط: هو فعل الإنسان، هو إرادة الإنسان، ﴿إِنَّ

اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1]. التغيير هنا أُسند إليهم فهو فعلهم، إبداعهم وإرادتهم.

إذاً السُنّة التاريخيّة حينما تُصاغ بلغة القضيّة الشرطيّة، وحينما يحتلّ إبداع الإنسان واختياره موضوع الشرط في هذه القضيّة الشرطيّة، في مثل هذه الحالة تصبح هذه السُنّة متلائمةً تماماً مع اختيار الإنسان، بل إنّ السُنّة حينئذٍ هي اختيار الإنسان، تزيده اختياراً وقدرةً وتمكناً من التصرّف في موقفه، كما أنّ ذلك القانون الطبيعيّ للغليان كان يزيد من قدرة الإنسان لأنّه يستطيع حينئذٍ أن يتحكّم في الغليان، بعد أن عرف شروطه وظروفه، كذلك السُنن التاريخيّة ذات الصيغ الشرطيّة، هي في الحقيقة ليست على حساب إرادة الإنسان، وليست نقيضاً لاختيار الإنسان، بل هي مؤكّدةٌ لاختيار الإنسان، توضّح للإنسان نتائج الاختيار، لكي يستطيع أن يقتبس ما يريده من هذه النتائج، لكي يستطيع

---

(١) الرعد/ من الآية١١.

أن يتعرّف إلى الطريق الذي يسلك به إلى هذه النتيجة، أو إلى تلك النتيجة، فيسير على ضوءٍ وكتابٍ منيرٍ.

٢ ـ شكل القضيّة الفعليّة المحقّقة

الشكل الثاني الذي تتّخذه السُنن التاريخيّة؛ شكل القضيّة الفعليّة الناجزة الوجوديّة المحقّقة. وهذا الشكل أيضاً نجد له أمثلةً وشواهد في القوانين الطبيعيّة والكونيّة، مثلاً:

العالِم الفلكيّ حينما يُصدر حكماً علميّاً على ضوء قوانين مسارات الفلك؛ بأنّ الشمس سوف تنكسف في اليوم الفلانيّ، أو أنّ القمر سوف ينخسف في اليوم الفلانيّ، هذا قانون علميّ وقضيّة علميّة، إلاّ أنّها قضيّة وجوديّة ناجزةٌ، ليست قضيّةً شرطيّةً، لا يملك الإنسان اتجاه هذه القضيّة، أن يغيّر من ظروفها، وأن يعدّل من شروطها، لأنّها لم تبيّن كلغة قضيّةٍ شرطيّةٍ، وإنّما بُينت على مستوى القضيّة الفعليّة الوجوديّة. الشمس سوف تنكسف، القمر سوف ينخسف، هذه قضيّةٌ فعليّةٌ تنظر إلى الزمان الآتي، وتخبر عن وقوع

هذه الحادثة على أيّ حال.

كذلك القرارات العلميّة التي تصدر عن الأنواء الجويّة، المطر ينهمر على المنطقة الفلانيّة، هذا أيضاً يعبر عن قضيّة فعليّة وجوديّة، لم تُصَغ بلغة القضيّة الشرطيّة، وإنّما صيغت بلغة التنجيز والتحقيق، بلحاظ مكانٍ معيّن، وزمانٍ معيّن.

٣ـ شكل الاتجاه الطبيعيّ

الشكل الثالث للسُنّة التاريخيّة: وهو شكل اهتمّ به القرآن الكريم اهتماماً كبيراً، وهو السُنّة التاريخيّة المُصاغة على صورة اتجاهٍ طبيعيٍّ في حركة التاريخ، لا على صورة قانونٍ صارمٍ حديٍّ، وفرقٌ بين الاتجاه والقانون.

بين الاتجاه والقانون

ولكي تتّضح الفكرة في ذلك، لا بدّ وأن نطرح الفكرة الاعتياديّة التي نعيشها في أذهاننا عن القانون.

القانـون العلميّ كما نتصوّره عادةً؛ عبارةٌ عن تلك السُنّة التـي لا تقبل التحدّي من قبل الإنسـان، لأنّها قانونٌ من قوانيـن الكون والطبيعة، فلا يمكن للإنسـان أن يتحدّاها، أن ينقضها، أن يخرج عن طاعتها، يمكنه أن لا يصلّي لأنّ وجوب الصلاة حكمٌ تشريعيٌّ وليس قانوناً تكوينيّاً، يمكنه أن يشـرب الخمـر، لأنّ حرمة شرب الخمر قانـونٌ تشريعيٌّ وليس قانوناً تكوينيّـاً، لكنّه لا يمكنه أن يتحدّى القوانين الكونيّة والسُنن الموضوعيّة، مثلاً لا يمكنه أن يجعل الماء لا يغلي إذا توفّرت شروط الغليان، لا يمكنه أن يتحدّى الغليان، أن يؤخّر الغليان لحظةً عن موعده المعيّن؛ لأنّ هذا قانونٌ، والقانون صارمٌ، والصرامة تأبى التحدّي.

هـذه هي الفكرة التي نتصوّرها عادةً عن القوانين وهي فكـرةٌ صحيحةٌ إلى حدّ ما، لكن ليس من الضروريّ أن تكون كلّ سنّـةٍ طبيعيّـةٍ موضوعيّـةٍ على هذا الشكل؛ بحيث تأبى التحدّي، ولا يمكـن تحدّيها من قبل الإنسان بهذه الطريقة، بـل هناك اتجاهاتٌ موضوعيّة في حركة التاريخ، وفي مسار

الإنسان، إلّا أنّ هذه الاتجاهات لها شيءٌ من المرونة، بحيث إنّها وإن لم تقبل التحدّي على شوطٍ طويلٍ، لكن على الشوط القصير تقبل التحدّي. أنت لا تستطيع أن تؤخّر موعد غليان الماء لحظةً، لكن تستطيع أن تجمّد هذه الاتجاهات لحظاتٍ من عمر التاريخ، لكن هذا لا يعني أنّها ليست اتجاهات تمثّل واقعاً موضوعيّاً في حركة التاريخ، هي اتجاهاتٌ ولكنّها مرنةٌ، تقبل التحدّي لكنّها تحطّم المتحدّي، حينما يتحدّى هذا المتحدّي تحطّمه بسُنن التاريخ نفسها. ومن هنا كانت اتجاهات.

هناك أشياءٌ يمكن تحدّيها دون أن يتحطّم المتحدّي، لكن هناك أشياءٌ يمكن أن تتحدّى على شوطٍ قصيرٍ، ولكن المتحدّي يتحطّم على يد سُنن التاريخ نفسها. هذه هي طبيعة الاتجاهات الموضوعيّة في حركة التاريخ.

اتجاه العلاقة بين الذكر والأنثى

إنّ هناك اتجاهاً في تركيب الإنسان، وفي تكوين الإنسان،

اتجاهاً موضوعيّاً لا تشريعيّاً، إلى إقامة العلاقات المعيّنة بين الذكر والأنثى في مجتمع الإنسان، ضمن إطارٍ من أُطر النكاح والاتصال. هذا الاتجاه ليس تشريعيّاً، ليس تقنيناً اعتباريّاً، وإنّما هو اتجاه موضوعيّ، أعملت العناية في سبيل تكوينه في مسار حركة الإنسان. لا نستطيع أن نقول إنّ هذا مجرّد قانونٍ تشريعيٍّ، مجرّد حكمٍ شرعيٍّ. لا وإنّما هذا اتجاهٌ ركّب في طبيعة الإنسان، وفي تركيبٍ الإنسان، وهو الاتجاه إلى الاتصال بين الذكر والأنثى، وإدامة النوع عن طريق هذا الاتصال، ضمن إطار من أُطر النكاح الاجتماعيّ.

هذه سنّةٌ لكنّها سنّةٌ على مستوى الاتجاه، لا على مستوى القانون. لماذا؟

لأنّ التحدّي لهذه السنّة لحظةً أو لحظات ممكنٌ، أمكن لقوم لوط أن يتحدّوا هذه السنّة فترةً من الزمن، بينما لم يكن بإمكانهم أن يتحدّوا سنّة الغليان بشكلٍ من الأشكال، لكنّهم تحدّوا هذه السنّة، إلاّ أن تحدّي هذه السنّة يؤدّي إلى أن يتحطّم المتحدّي، المجتمع الذي يتحدّى هذه السنّة

يكتب بنفسه فناءَ نفسه؛ لأنّه يتحدّى ذلك عن طريق ألوان أخرى من الشذوذ التي رفضها هذا الاتجاه الموضوعيّ، وتلك الألوان من الشذوذ تؤدّي إلى فناء المجتمع وخرابه.

ومن هنا كان هذا اتجاهاً موضوعيّاً يقبل التحدّي على شوطٍ قصيرٍ، لكن لا يقبل التحدّي على شوطٍ طويلٍ؛ لأنّه سوف يحطّم المتحدّي نفسه.

الاتجاه إلى توزيع الميادين بين المرأة والرجل، هذا الاتجاه اتجاهٌ موضوعيٌّ وليس اتجاهاً ناشئاً من قرارٍ تشريعيٍّ، اتجاهٌ ركّب في طبيعة الرجل والمرأة، ولكن هذا الاتجاه يمكن أن يتحدّى.

اتجاه الحضانة والتربية

يمكن استصدار تشريعٍ يفرض على الرجل بأن يبقى في البيت ليتولّى دور الحضانة والتربية، وأن تخرج المرأة إلى الخارج لكي تتولّى مشاقّ العمل والجهد. هذا بالإمكان أن

يتحقّق عن طريق تشريعٍ معيّن، وبهذا يحصل التحدّي لهذا الاتجاه. لكن هذا التحدّي سوف لن يستمرّ لأنّ سُنن التاريخ سـوف تجيـب على هـذا التحـدّي، لأنّنا بهذا سـوف نخسر ونجمد كلّ تلك القابليّات التي زوّدت بها المرأة، من قبل هذا الاتجاه، لممارسة دور الحضانة والأمومة، وسوف نخسر كلّ تلـك القابليّـات التي زوّد بها الرجل؛ من أجـل ممارسة دورٍ يتوقّـف على الجلـد والصبر والثبات وطـول النفس، تماماً، من قبيـل أن تسلّم نجاريّـات بناية إلى حـدّادٍ، وحداديّاتها إلـى نجّارٍ، يمكن أن تصنـع هكذا، ويمكـن أن تنشأ البناية أيضـاً، لكن هذه البناية سوف تنهـار، سوف لن يستمرّ هذا التحدّي على شوطٍ طويلٍ، سوف ينقطع في شوطٍ قصيرٍ كلّ اتجـاهٍ من هذا القبيل، هو في الحقيقـة سنّةٌ موضوعيّةٌ من سُنـن التاريخ، ومن سُنن حركة الإنسـان، ولكنّها سنّةٌ مرنةٌ تقبل التحـدّي على الشوط القصير، ولكنّها تجيب على هذا التحدّي.

نوع العقاب على تحدّي السنّة

العقـاب هنا ليس بمعنى العقـاب الذي ينـزل على من يرتكب مخالفةً شرعيّةً، على يد ملائكة العذاب في السماء في يوم القيامة، ليس هو ذاك العقـاب الذي ينزل على من يخالف القانون على يد الشرطيّ، يضربه بالعصا على رأسه، وإنّما العقـاب هنا ينزل من سُنن التاريخ نفسها، تفرض العقاب على كلّ أمّةٍ تريد أن تبدّل خلق اللّه سبحانه وتعالى، ولا تبديل لخلق اللّه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[1].

نحن نقول بأنّ السُنن التاريخيّة من الشكل الثالث، إذا تحدّاها الإنسان فسوف يأخذ العقاب من السُنن التاريخيّة، سرعان ما ينزل عليه العقاب من السُنن التاريخيّة نفسها. كلمة سرعان هنا يجب أن تؤخذ بمعنى السرعة التاريخيّة لا السرعة التي نفهمها في حياتنا الاعتيادية. وهذا ما أرادت أن

---

(١) الحج:٤٧.

تقولـه هذه الآية الكريمة. هذه الآية الكريمة التي تتحدّث عن العـذاب واقعةٌ في سياق العـذاب الجماعيّ الذي نزل بالقرى السابقة الظالمة، ثم بعد ذلـك يتحدّث عن استعجال الناس فـي أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، النـاسـ يستعجلون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقولـون له أين هذا العقاب؟ أين هذا العذاب؟ لماذا لا ينزل بنا نحن الآن؟ كفرنا، تحدّيناك، لم نؤمن بك، صممنا آذاننا عن قرآنك، لماذا لا ينزل بنا هذا العذاب؟ هنا القرآن يتحدّث عـن السرعة التاريخيّة التي تختلف عـن السرعة الاعتياديّة، يقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ﴾، لأنّها سنّةٌ، والسنّة التاريخيّة ثابتةٌ، لكن ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[1].

اليوم الواحد في سُنـن التاريخ عند ربّك باعتبار أن سُنن التاريخ هي كلمات الله كما قرأنا في ما سبق، كلمات الله سُنن التاريخ. إذاً في كلمات الله، في سُنن الله اليوم الواحد، المهلة القصيـرة، هي ألف سنةٍ. طبعاً في آيـةٍ أخرى عبّر بخمسين

(١) الحج/٤٧.

ألف سنة، لكن أريد بذلك أيّام القيامة لا يوم الدنيا، وهذا هو وجه الجمع بين الآيتين الكريمتين.

في آية أخرى قيل: ﴿تَعْرُجُ الْمَلائكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة * فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾(١).

هذا ناظرٌ إلى يوم القيامة، إلى يوم تكون السماء كالمهل، فيوم القيامة قدّر بخمسين ألف سنةً، أمّا هنا فإنه أو فهو يتكلم عن يوم توقيت نزول العذاب الجماعيّ وفقاً لسُنن التاريخ، يقول: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْف سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ﴾. إذاً فهذا شكلٌ ثالثٌ من السُنن التاريخيّة، هذا الشكل هو عبارةٌ عن اتجاهاتٍ موضوعيّةٍ في مسار التاريخ، وفي حركة الإنسان، وفي تركيب الإنسان، يمكن أن يتحدّى على الشوط القصير، ولكن سُنن التاريخ لا تقبل التحدّي على الشوط الطويل، إلّا أنّ الشوط القصير والطويل هنا ليس بحسب طموحاتنا، بحسب حياتنا الاعتياديّة؛ يوماً أو يومين، لأنّ

---

(١) المعارج: من الآية ٤ إلى الآية ٨.

اليـوم الواحد في كلمات اللّٰه، وفي سُنن اللّٰه كألف سنةٍ ممّا نحسب.

هـذا هو الشكل الثالث، الدين هو المثال الرئيسي للشكل الثالث وسيأتي التعرّض له إن شاء اللّٰه.

الخلاصة

هناك ثلاثة أشكال تتّخذها السنّة التاريخيّة:

١. شكل القضيّة الشرطيّة:

تتمثّل السنّة التاريخيّة في قضيّة شرطيّة، تربط بين حادثتين، تؤكّد العلاقة الموضوعيّة بين الشرط والجزاء، وأنّه متى ما تحقّق الشرط تحقّق الجزاء، والإنسان ضمن تعرّفه إلى هذه القوانين، يستطيع أن يعمل القانون في كلّ حالة يرى أنّه بحاجة إلى الجزاء.

١ ـ ﴿إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾؛ فهناك علاقة بين تغيير المحتوى الداخليّ للإنسان، وتغيير الوضع الظاهريّ للبشريّة والإنسانيّة. مفاد هذه العلاقة قضيّة شرطيةٌ؛ أنّه متى ما وُجد ذاك التغيير في أنفس القوم، وُجد هذا التغيير في بناء القوم.

٢ ـ ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾؛ وهذه سنّة أيضاً بلغة القضيّة الشرطيّة تربط وفرة الإنتاج بعدالة التوزيع.

٣ ـ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَــا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَــا تَدْمِيراً﴾، وهذه أيضاً سنّــةٌ تاريخيّةٌ بُيّنت بلغــة القضيّة الشرطيّة، ربطت بين أمرين، بين تأمير الفسّــاق والمترفين في المجتمع، وبيــن دمار ذلك المجتمع وانحلاله.

إنّ اختيار الإنسان يمثّل محور القضيّة الشرطيّة، والشرط هو فعل الإنسان، هو إرادة الإنسان،

٢ ـ شكل القضيّة الفعليّة المحقّقة:

لا يملــك الإنســان اتجاه هذه القضيّــة، ولا يقدر أن يغيّر مــن ظروفهــا، أو أن يعدّل مــن شروطها، فهي قضيّــةٌ فعليّةٌ تنظر إلى الزمان الآتــي، وتخبر عن وقوع هذه الحادثة على أيّ حال.

٣. شكل الاتجاه الطبيعيّ:

وهو السُنّة التاريخيّة المُصاغة على صورة اتجاه طبيعيٍّ فــي حركة التاريخ، لا على صورة قانــونٍ صارمٍ حديٍّ، وفرقٌ بيــن الاتجــاه والقانون، لأنّ القانــون عبارةٌ عن تلــك السُنّة

التي لا تقبل التحدّي من قبل الإنسان، بينما الاتجاه له شيءٌ مـن المرونة، بحيـث إنّه وإن لـم يقبل التحـدّي على شوطٍ طويلٍ، لكنّه على الشوط القصير يقبل التحدّي، لكنّه يحطّم المتحـدّي، يحطّـم بسُنن التاريـخ نفسها. ومـن هنا كانت اتجاهات.

الفهرس